الادب القومى

مقدمة الكتاب بقلم حضرة الاستاذ الكبير الدكتور احمد ضيف
استاذ الادب بدار العلوم العليا

يرى أدباء اللغة العربية أن الادب هو ما كان سائرا على النهج العربى الفصيح . وإنه إن خرج على طريقة القدماء من حيث نظم القصيد ، والاساليب العربية واغراض الشعر المعروفة ، من مدح ، وهجاء ، ونسيب الخ ... والمعانى التى ذكرها هؤلاء القدماء فى شعرهم ، بل الاخيلة والآراء الجزئيه كالتشبيهات والاستعارات والكنايات التى في الشعر القديم لايكون أدبا ولا شعرا عربيا

وقد كان هذا الرأى سائدا منذ فجر الحركة الادبية فى التأليف كما ذكر ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » فقد جعل معلقة امرئ القيس نموذجا يجب أن ينسج الشعراء على منواله فى نظم القصيد

وقالوا إن شعر المتنبى وأبى العلاء المعرى وغيرهما ممن نحا نحوهما ليس من الشعر العربى الصميم ، لانه احتوى على مسائل فلسفية جعل الشعر جعبة أفكار للحكماء والمفكرين وهذا ليس جاريا على طريقة الشعر العربى الذى هو فى رأى كثير منهم خيال وصناعة لفظية

وقد سار هؤلاء النقاد الاقدمين كثير من الادباء الحديثين ، ولم ينظروا إلى الادب إلا من جهة عباراته الصحيحة ، وأخيلته الواسعة وصناعته المهذبه ، وأكثر ما كان ذلك متجها إلى الصناعة الشعريه ، لان

الشعر هو الذى يمثل الادب العربى فى جملته ، وقد كان من جراء انتشار هذا الرأى أن حصر الادب فى طبقة من الخاصة شعراء وكتابا ، ولا شك فى أن هؤلاء الخاصة إنما يعبرون عن ثقافتهم ، وآراء الفنيين منهم والمتعلمين من جمهرتهم ، وعلى ذلك فقد اشتغل العالم العربى بدراسة كلام هؤلاء الشعراء والكتاب من الخاصة ، وانحصر الادب العربى فى آراء هذه الطبقة وفى أفكارهم ، وكان من نحس طالع الادب العربى أن التجأ هؤلاء الكتاب والشعراء إلى ما نظمه أو كتبه من قبلهم من الشعراء والكتاب السالفين ، فكأن الأدب عبارة عن مايرثه الخلف عن السلف من حيث التعبير عن بعض الموضوعات المحدودة والآراء المعروفة ، حتى جعلوا المعانى الجزئية تراثا يرثه الخلف عن السلف ، وحددوا هذه المعانى كما فعل ذلك قدامه بن جعفر فى كتابه « نقد الشعر » فقد جعل للمدح والذم والنسيب وجميع الانواع المعروفة فى الشعر معاني يجب ألا يتخطاها الشاعر إلى غيرها إذا أراد أن يمدح أو يهجو أو يعشق الخ

ونسى هؤلاء أن للعامة أخيلة وآراء ، وعبارات ، تدل على حياتهم الاجتماعية العامة للشعوب ، كما تدل آراء الخاصة وأخيلتهم على تلك المعاني المملوءة بالثقافة الخاصة وقد ضربوا بكلام العامة وآرائهم عرض الحائط تجنبا لما عساه أن يمس اللغة العربية الفصيحة أو أن يحولها إلى طريق آخر ربما كان من وسائل الهدم أو الفناء

فكان هذا من الأسباب التى ذهبت بالأداب القوميه ولهجات العامة وآثار عقولهم لعدم تدوينها والعناية بجمعها بخلاف ماعهد فى جمع كل

شئ يتعلق بآثار العرب واحوالهم ومجتمعاتهم ومجالهم الخاصة والعامة كما هو معروف فى كتب الأدب الشهيرة .

وكان هذا الاهمال أيضا داعيا من دواعى انصراف الناس ولا سيما الادباء عن دراسة القصص العامية أو الممزوجة بالعامية والعربية الفصحى وعدم ذيوعها مثل قصص ألف ليله وليله وما أخذ منها أو حاكاها مثل قصص عنتره وغيرها مما لا يدرس دراسة علمية أو أدبية حتى لا تكاد تجد ذكرا لهذه القصص فى كتب الأدب، وكأن اللغة العربية خلت من هذا النوع خلوا تاما.

وقد خفى على كثير من المشتغلين بالأدب أن أصول الأدب مأخوذة من التفكير العام للشعوب والامم ، ومن صور مجتمعاتهم وأحاديثهم ، حتى ان ما يوجد في الشعر الفصيح من الحكم والأمثال وآراء الخاصة من الفصحاء والبلغاء والفنيين مستمد مما يجول في رءوس العامة من الناس ؛ بل قد يكون الأدب العامى أو الشعبى أدل على صور النفوس والحياة العامة والخاصة لأمة من الأمم من الأدب الفصيح المنمق الذى يلتزم فيه الشاعر أو الكاتب طرق الصنعة والتعمل

وأدل شئ على ظهور هذا الأدب العلمي فى لغة العرب ماكان فى الأزجال والموشحات والمواليا ، [والسكان كان ،] والدوبيت وغيرها .

وقد ذكر طائفة عظيمة من هذا الشعر العامى ابن خلدون فى كلامه على الشعر ، وأكثر ماذكره في ذلك كان ذائعا فى بلاد المغرب بلهجة المغاربة ولا يعد من الأدب الفصيح . ولكنه أدب قومى أو شعبى أو عامى ممزوج بصناعة الخاصة من الادباء .

ولا أبالغ إذا قلت إن ذلك الادب العامى أو ذلك الأدب الفنى الملحون الدال على صور النفوس وأحوال عامة الناس والاجتماع فى أسلوب ساذج جميل أكثر ماكان ظهورا فى مصر ولاسيما منذ قبيل القرن التاسع عشر الميلادى . ذلك لأن هذا الأدب فى أسلوب تهكمى مملوء بالنكات الظريفة والفكاهات الحلوة والنقد الدقيق البرئ — كما يقولون — وحسن النادرة . وكل هذه من الصفات العامة للعقل المصرى وللاجتماع المصرى . ولا نبحث الآن فى أسباب ذلك وإنما نقول إن هذا العقل المصرى المملوء بالفكاهة والتنكيت والتبكيت ظهر فى كثير مما كتبه المصريون ولاسيما الأدباء البلديون منهم — كما ظهر في كثير من قصص ألف ليله وليله كقصة معروف الاسكافي وغيرها ، كما ظهر مبعثرا فى أنحاء قصص عنترة والزير سالم وغيرهما من القصص المنتشرة فى أيدى العامة وكان هذا النوع من القصص العامية من مبتكرات المصريين فى الأدب العربى

وقد سميناهذا النوع بالأدب المصرى لامتيازه عن كل أنواع الأدب العربى فى جميع البلدان التى كتب أهلها أو نظموا بلغة العرب .

وأكثر هذا النوع ظهورا فى الازجال ، والزجالين المصريين اليد الطولى فى هذا النوع من الأدب المصرى العربى ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادى وقد برز فى هذا النوع كثير من الادباء المصريين نذكر منهم المرحوم حسن الألاتى في كتابه البديع المسمى : (مضحك العبوس). ومن هؤلاء الزجالين الشاعر والكاتب القومى الشعبى « عبدالله نديم » ومنهم « عثمان جلال » ومن أبرعهم المرحوم الشيخ « محمد النجار

والمرحوم « إمام العبد» وكثير ممن ذكر فى هذا الكتاب الذي نحن بصدده وقد كانت هذه الأزجال المصرية تنشر فى مجلة (الأرغول) ومجلة (اليعسوب) ومجلة (الاستاذ) لعبد الله نديم وغيرها

فهذا الأدب العامى الذى ظهر بمصر فى الازجال هو من تاريخ الأدب العربى المصرى لاحتوائه على كثير من حركات العقول والأفكار المصرية ولا نصباغه بصبغة التفكير المصرى فلا بد إذا لمؤرخ الأدب أن يعرج على هذا النوع من الشعر العامى والقصص العامية المكتوبة بأقلام المصريين ليقف على تاريخ الأدب العربى في مصر

من هذا نتبين منزلة ذلك الكتاب الذى نكتب له هذا التصدير وهو كتاب (تاريخ أدب الشعب) تاليف الكاتبين الاديبين حسين مظلوم رياض، ومصطفى محمد الصباحى (فقد احتوى هذا الكتاب بعد مقدمته عن الكلام فى الشعر والموشحات وغيرها على فصول ممتعة في الزجل وأنواعه وأشهر الزجالين وتاريخهم وتراجمهم مما يحتاج إليه الاديب ولا يجده مجموعا هذا الجمع فى كتاب آخر ، فضلا عن احتوائه على طائفة عظيمة من تلك الازجال التى يحتاج إليها من يريد أن يعرف العقل المصرى الصميم والادب المصرى الصحيح الخالص من كل شائبة أجنبية . وقد أجاد المؤلفان إجادة يشكران عليها فى الكلام والبحث عن الزجالين المصريين وعن أخبارهم واستقصاء ما أمكن من سيرهم وهو كتاب وحيد في بابه ، جدير بأن يقتنيه الادباء وإنا نسأل الله أن يوفقهما لاظهار الجزء الثانى منه حتى يتم النفع به فانه جزء من تاريخ الادب الاجتماعى فى مصر

احمد ضيف

الأستاذ محمد خلف

بقلم مظلوم

ولد محمد افندى خلف بناحية صفط الملوك مركز اتياى البارود بمديرية البحيرة ، فى ٩ اغسطس سنة ١٨٧٣ . وكان والده المرحوم الشيخ جاد خلف من اعيان قريته وذوى الاملاك فيها ، على جانب كبير من الخلق العربى . المجيد ، متحليا بفضيلة الكرم والسخاء ، يطعم الطعام ويؤدى الضيفان ، وكان من عادة أهل هذه البلدة كسائر أهل الريف فى ذلك العهد ، أن يضعوا الموائد للطارقين فى شهر رمضان وترك

الناس هذه العادة . فلم يتبعها غير الشيخ جاد والد المترجم ، وكان رجلا فاضلا محبا للعلم والعلماء ، فادخل المترجم فى مكتب القرية ، فلم يتم السابعة من عمره حتى اتم معها حفظ القرآن الكريم ، وأرسله والده بعد ذلك الى القاهرة فى رعاية عمه صاحب الفضيلة الشيخ عبد الجواد خلف امام وخطيب جامع البنات ، فبعث به عمه إلى مدرسة الجمالية الابتدائية ، وكان ناظرها فى ذلك العهد المرحوم محمد بك عبد الفتاح فلما مثل بين يديه وشاهد عليه أمارات النجابة والذكاء قبله في عداد تلامذته بدون مصروفات ، فمكث في المدرسة حتى اتم علومه الابتدائية وحاز شهادتها ، ثم التحق بعدها بالمدرسة الخديوية ، فى عهد ناظرها المرحوم فايد بك ، ورأت لجنة الامتحان ان تعفيه من المصروفات ، فدخل المدرسة في نظير دفع جنيه واحد عن طعام الغذاء والادوات المدرسية ، ومكث فى هذه المدرسة ماشاء الله ، ولم يتمكن من اتمام حياته الدراسية ، بسبب ظروف عائلية طرأت عليه فى ذلك الحين فجعلته يترك الدراسة مرغما ، وطرق أبواب الوظائف الحكومية ، فاستخدم بنيابة الازبكية فى سنة ١٨٩١ ، ثم نقل الى محكمة عابدين لأول تأسيسها برياسة المرحوم الشيخ محمد عبده . وفى سنة ١٨٩٣ تعين بمحكمة منيا القمح الشرعية ونقل منها الى محكمة اسيوط الاهلية ، ثم الى محكمة طنطا وظل حيث انتدب لتسوية معاشات موظفى النيابة بوزارة الحقانية ، ثم نقل الى قلم السوابق بوزارة الداخلية ، وضم هذا القلم الى ادارة تحقيق الشخصية فصار تابعا لها

وبعد ذلك طلب إحالته الى المعاش فسوى معاشه كما طلب ، وابتنى لنفسه منزلا بالزيتون ، آثر أن يختلي فيه مع نفسه ، منقطعا إلى كتب الادب والتاريخ وكنا نحن نعرفه ميالا للأدب والادباء ، شغوفا بالجلوس إلى الرجالين الممتازين ، يسمع منهم ويساجلهم آراءهم ، فلما هممنا بوضع هذا الكتاب ، لجأنا اليه فوجدنا لديه من المعلومات أطرفها وأوثقها ، فاجدى بذلك على تاريخ الادب الشعبي اعظم الفوائد ولما هيأنا مسودات الكتاب عرض أن يساهم فيه ، فتكفل بنفقاته ونشره ، فبسط في هذا السبيل يده حتى استطعنا أن نخرج الكتاب على هذه الصورة ، وإن يكن لاحد قبلنا يد في عملنا هذا ، فهو الاستاذ محمد خلف الذي لقينا من معاونته ما استحق به لدينا جزيل الشكران